Journal of Al-Farabi for Humanity Sciences Volume (7), Issue (4) May (2025)

ISSN: 2957-3874 (Print)
Journal of Al-Farabi for Humanity Sciences (JFHS)
https://iasj.rdd.edu.iq/journals/journal/view/95
مجلة الفارابي للعلوم الإنسانية تصدرها كلية الفارابي الجامعة

شعرية الزمان والمكان في ديوان علية بنت المهدي

أ.م.د. عزيزة عزالدين لافي
جامعة الانبار/كلية التربية للبنات

The Poetics of Time and Place in the Poems of Aliya Bint Al Mahdi

Assistant Professor Aziza Ezz El-Din Lafi
ailafie@uoanbar.edu.iq

المُلخص

يُعَدُّ العصرُ العّباسيُّ مِن أزهَى عُصورِ الأدبِ العربيّ، ويُعتَبَرُ شُعراؤُه مِن أشجعِ شُعراءِ العَربِ؛ لِتبنِّيهم فِكرةَ الثّورةِ عَلى النّمطِ الشّعريّ القَديمِ، إذ تحوّل القالبُ الشّعريُّ مِن مُجرّدِ قَالبٍ عَقيمٍ نَمطيٍّ يُؤدِي وظيفتَه عَبرَ تَلكَ الأوزانِ المَحصورةِ فِي البُحورِ الخَليليةِ، إلَى قَالبٍ غَنائيٍّ بَديعٍ يُطربُ النّفسَ ويُشنّفُ الأُذنَ، وتأتِي عُليّةَ بنتُ المهديّ عَلى رَأسِ هؤلاءِ الذين تَطلّعوا للتّجديدِ في القالبِ الفنيّ للشّعرِ، وجاءَ شِعرُها مُعتمدًا عَلَى النّزعةِ الغنائيّةِ، وَساعدَها عَلَى ذلِكَ تَغنّيهَا بِه فِي مَجلسِ الرّشيدِ أخيهَا، وَمِن صورِ التّجديدِ فِي شِعرِهَا إعطاؤها الزّمانَ والمكانَ طَبيعةً خاصّةً، تنِمُّ عَن استثمارِ عُليّةَ لهَما في الدّلالةِ عَلى مخبوءِ نَفسِهَا ومُضمراتِ خاطرِها.**الكلماتُ المفتاحية: (الشعريةُ – الزمان والمكان – عُلية بنت المهدي)**

Abstract:
The Abbasid era is considered one of the most prosperous eras of Arabic literature, and its poets are considered among the bravest Arab poets; because of their adoptation the idea of revolution against the old poetic style. Thus, the poetic form was transformed from a mere sterile, stereotypical form that performed its function through those meters confined to the Khalilian poetic meters, into a beautiful lyrical form that delights the soul and delights the ear. Aliya bint al-Mahdi comes at the head of those who looked forward to renewal in the artistic form of poetry, and her poetry came based on the lyrical tendency, and she was helped in that by her singing it in the council of her brother al-Rashid. One of the types of renewal in her poetry is giving time and place their own special nature. This indicates Oliya's investment in them to indicate the hidden aspects of her soul and the secrets of her mind.
Keywords: (Poetics - Time and Place - Oliya Bint Al Mahdi)

أهداف الدراسة:

لَم يَكن اختيارُ هذا النّوعِ مِن الموضوعاتِ يخلُوا مِن مَقصدٍ تَستهدفُ الدّراسةُ تَحقيقَه، فَالأهداف الّتي تتعرَضُ لتَحقيقِها هِي المُحرّكُ الرئيسُ نحوَ إنجازِها، وهناك عددٌ من الأهدافِ التّي يسعَى البحثُ لإنجازِها، ومنها:

- إبراز هذا التّرابطِ الذي يَحكمُ علاقةَ المَنهجِ البنيويّ بِدراسةِ شعريةِ الزمنِ والمكانِ فِي ديوانِ عُليّةَ بنت المهديّ.
- تحديدُ ماهيةِ الزّمانِ والمكانِ فِي الشّعرِ العبّاسيّ، بِحسَبِ الرّؤيةِ الشّعريةِ الّتي تَناولتْهُ عبرَها عُليّةُ بنتُ المهديّ.
- التّأكيدُ عَلى وجودِ عَلاقةٍ قويةٍ بينَ الزّمانِ والمكانِ والوظائفِ الّتي تُؤدّيهَا اللُّغةُ التواصليةُ فِي إطارِها الجماليّ.

أهميّة البحث:

لَا شكّ أنّ أهميةَ أيّ عملٍ إنّما تَنبعُ مِن إيمانِ القائمِ عَليهِ بِضرورةِ إنجازِه، وَإنّ إنجازَ بحثٍ يقومُ عَلَى دراسةِ شعريةِ الزّمانِ والمكانِ في ديوانِ الشّاعرةِ العباسيةِ عُليةَ بنت المهديّ، مُعِينُ عَلَى الولوجِ إلَى عالمِها الخياليّ مِن خلالِ الزّمنِ والمكانِ، عَلى هَدْي من تَلك العناصرِ:

- إظهار قيمةِ الزمانِ والمكانِ في نَموذجٍ مِن شِعرِ العبّاسيينَ يَتناولُ هذين العُنصُرَين تناولًا مجازيًّا يفتحُهما عَلى آفاقٍ جَديدةٍ.
- رَغبة تمكينِ المُتلقّي مِن قراءةِ نُصوصِ هذا الدّيوانِ قراءةً حداثيّةً تجعلُ مِن خِطاباتِها بنيةً مُغلقةً لَا اتّصالَ لَها إلّا بِلغتِها التي أنتجتها.

-تَحفيزُ البَاحثينَ عَلَى إيلاءِ هذا الدّيوانِ جَانبًا مِن عنايتِهم؛ لقلّةِ الدّراساتِ المُعقودةِ حولَه.

مُشكلاتُ البحثِ:

مِن الطّبيعيّ أن لّا تَسيرَ الأُمورُ في الدّراسةِ وفقَ ما يَتطلّعُ إليهِ البَاحثُ، إذ إنّ البحثَ لا بُدّ أنّ تَعترضَه عدد من المُشكلاتُ، غيرَ أنّها لا تَقِفُ حجرَ عثرةٍ في سبيلِ إتمامِه، بَل إنّها قَد تكونُ سببًا في مَدِّ الباحثِ بالقوّةِ اللّازمةِ للاستمرارِ؛ رغبةَ التغلُّبِ عليهَا، ومِن مُشكلات هذه الدّراسةِ الاتي

- قِلّةُ المصادرِ والمراجعِ التي عُنيَت بِديوانِ الشّاعرةِ العبّاسيةِ (عُليّةَ بنتِ المهديّ، أُختِ هارونَ الرّشيد). اتخاذ الشّاعرةِ مِن الأزمنةِ والأمكنةِ – في ديوانِها – غِطاءً تَنفذُ منهُ إلَى رغبةٍ دَفينةٍ، قَد لا تكونُ صرَّحَت بهَا مِن ذِي قَبلٍ، وذلِكَ يجعلُ مِن الاستفادةِ بِجماليّةِ الزمانِ والمكانِ شبهَ مفقودةٍ.

- استشكال عدد من المعاني المجازيّةِ الّتي وَظّفتْها عُليّةُ في ديوانِها، وتعويلها عَلَى الإبهامِ المُفرطِ، حتّى إنّ قارئَ خِطابِها يَكادُ يعجزُ عَن فهمِ مرادِها مِنه أحيانًا.

مَنهجُ البحثِ:

وإنّ مِن المُناسبِ مَعَ دراسةٍ اتّخذت مِن شِعريةِ الزّمانِ والمكانِ وسيلةً للنّفاذِ إلَى مقاصدِ الشّاعرةِ، ونافذةً تُطلُّ منهَا عليهَا، أن تتبنّى المنهجَ البنيويَّ الشّكلانيَّ في محاولةِ سبرِ أغوارِ الخطابِ الشّعريّ المُنطوي عَلى عُنصُرَي الزّمانِ والمكانِ.

المقدمة:

يقع الشّعرِ مِن نفسِ العربيّ قَديمًا وحديثًا موقعًا مرموقًا، إذ يُمثّل تعبيرًا حقيقيًّا عَن ذاتِه ومشاعره، ودغفاتِ إحساساتِه، وحشدِ إلهامِه، وَقد نصَّ عَلى ذلِكَ كبارُ النقادِ فِي مُختلفِ عصورِ الشّعرِ الزّاهرةِ، كابنِ سلّام الجُمحيّ، والجاحظِ، وأبي عُبيدَةَ بن المُثنّى، وابن قُتيبةَ الدينوريّ، وهذا مَا دفعَ بكثيرٍ مِن البَاحثينَ نحوَ استكشافِ حقيقةِ هذا الفنّ، وبَواعثِه ومَدَى ما يُلحِقُه مِن تأثيراتٍ بِالنّفسِ، ففي كلّ ذلِكَ مَا يجعلُ منه محلّ عنايةٍ ونظرٍ مِن النّقادِ والدارسينَ.ولِتميّزِ كلّ عَصرٍ مِن عصورِ الأدبِ بِلونٍ جَديدٍ مِن ألوانِ الشّعرِ، وَانفرادِ كلّ زمنٍ مِن أزمنةِ الشّعرِ بِدوافعِ نظمِه وتمكينِ ملكاتِ التّعبيرِ بِه مِن النفسِ معَ كلّ مَناسبةٍ تَعرِضُ للشّعراءِ، بَدأت تنحو تطلّعاتُ الباحثينَ نحوًا مِن التّجديدِ في النّظرةِ النّقديةِ إلَى الشّعرِ، فَأخذوا عَلى عاتقِهم تَفصيلَ العصورَ والنّظرِ إلَى نَظمِ كلّ عصرٍ منها نظرةً مستقلّةً تُمكّنُ من قراءةِ نصوصِه وخطاباتِه قراءةً واعيةً تستلهم رُوحَ ذلك العصرِ، وتُعبّر عَن فِكرِ شُعرائِه وشعورِ أُدبائِه.ولشدّةِ عنايةِ البَاحثينَ بِملابساتِ النّظمِ في العَصرِ العبّاسيّ، تأتِي تلكَ الورقةُ البحثيةُ مُلبيةً لطموحِ الباحثينَ في الوقوفِ عَلى شكلِ القصيدةِ فنيًّا، ومُفادِهَا جوهريًّا في عَصرٍ مِن أزهَى عصورِ الشّعرِ العربيّ، هو العصر العباسيّ الذي أطلقَ عليهِ بعضُ النُّقادِ لَقَب عصرِ التّجديدِ الشّعريّ، وَتتناولُ هذه الدّراسةُ ديوان الشّاعرةِ العبّاسيّةِ عُليّةَ بنتِ المهديّ أُختِ الرّشيدِ، قراءةً للمحتوى وتحليلًا للبواعثِ، فِي ضَوءِ ثُنائيّةِ الزّمانِ والمكانِ الّتي تُحقّقُ لَنا معيارًا فنيًّا وركيزةً موضوعيّةً بالغةَ التأثيرِ في الكشفِ عَن مُحتوَى الشّكلِ الخارجيّ، وإماطةِ اللّثامِ عَن دلالةِ البِنيةِ الدّاخليّةِ فِي ضَوءِ مَا أطلَقَ عليهِ النّقدُ الحداثيُّ مفهومَ (شِعريّةِ الزّمانِ والمكان).عَلى أن تَقع الدراسةُ في مُلخّصٍ، ومُقدّمةٍ، وتَمهيدٍ، وثَلاثةِ مَباحثَ، وَخاتمةٍ تَرصدُ أهمَّ مَا توصّل إلَيه البحثُ مِن نتائجَ، أمّا مُلخّصُ البحثِ فللكلامِ عَلَى : أهدافِ الدراسةِ، وأهميَةِ البحثِ، والإشكالاتِ الّتي قَد تَعترضُ البَاحثَ في العملِ عَليهَا، ومنهجِ الدّراسةِ، وَأمّا المُقدّمةُ، فللأحكامِ العامّةِ والانطباعاتِ الأوليّةِ عَن الدّراسةِ، وهي بِمثابةِ مَفتاحٍ للدراسة، وأمّا التّمهيدُ، فَللتّعريفِ بِـ(عُليّةَ بنت المهدي)، وعَصرِها، وأبرزِ فنونِها الشّعريّةِ الّتي تَناولَهَا ديوانُها، وللحديثِ عَن مفهومِ جماليّةِ الزّمانِ والمكانِ وشّعريّتِهما.**المَبحثُ الأوّلُ: شِعريّةُ الزّمانِ والمكانِ (البِنيةُ، والمُؤثّراتُ)المبحثُ الثّاني: الرّوافدُ الأسلوبيّةُ لِشِعريةِ الزمانِ والمكانِ في دِيوانِ عُليّةَ المَبحثُ الثّالثُ: اختلافُ الظّاهرةِ لاختلافِ الزّمانِ والمَكانِ**

تَمهيدٌ:يُشكّلُ الزمانُ والمكانُ سِمةً أساسيةً في معارفِ وعلومِ وأدبِ الأُممِ المُختلفةِ، فُبِمراعاةِ تحكُّمِهما في كلّ ما يقعُ حولَنا، نَجِدُ أنَّهما عُنصرانِ حيّويان يَعكسانِ الحياةَ بأسرِها، وَقد عبَّر كلُّ إنسانٍ عنهما بحسبِ رؤيتِه لهما، ولا شكَّ أنّ التعبيرَ الأمثلَ عَنهما هو ما جاءَ في لُغةِ الشّعراءِ، تلك اللغةِ التي تُضفي عليهَما جانبًا من الحسيّةِ، حيثُ تصورُ الزمان والمكانَ على أنهما كائنين حيّين يتفاعلانِ معَ الإنسانِ كما أنّه يتأثّرُ بهما.وقد انفردت اللغةُ الشّعريةُ بعَكسِ ملامحِ الجماليةِ في الزمانِ والمكانِ؛ لِمَا تملكُه تلك اللُّغةُ من قوةٍ فاعلةٍ تُحوّلُ الصورَ الذهنيّةَ والمتوهّمةِ إلَى صُورٍ واقعيةٍ محسوسةٍ عبرَ الانحرافاتِ اللغويّةِ والانزياحاتِ المجازيةِ التي يُوظّفها الشّعراءُ في الارتقاءِ بالمعنَى والإدلالِ عليهِ بِطُرقٍ تختلفُ عَن تلكَ التي يتناولُه بهَا غيرُه مِن غيرِ الشّعراءِ، وسَنقِفُ بِنا تَلك الدّراسةُ عَلَى شيءٍ مِن المباينةِ في تِناولِ الشّاعرةِ العربيةِ لِلزمانِ والمكانِ بِلُغةٍ شعريةٍ ذاتِ طابعٍ جماليٍّ تَميّزت بِه عَن غيرِها شكلًا وجوهرًا، وذلكَ مَا سنتعرّفُ عَليهِ في ضَوءِ دراسةِ بَعضِ النّماذجِ التّحليليةِ مِن ديوانِ عُليّةَ بنتِ المَهديّ، بَعدَ التّعريفِ بِهَا، والنصّ عَلَى مفهومِ شِعريّةِ الزّمانِ والمكانِ فِي ديوانِها.

عُليّةُ بنتُ المهديِّ (مَن تكونُ؟)

اسمُها: علية بنت محمد بن أبي جعفر المنصور الملقَّبِ بالمهديّ (الأصفهاني، الأغاني، ٢١/٤، ٢٠١١)، وهو خليفةٌ ابنُ خليفةٍ، وأخوها: هارون الرشيد، وأمُّها أمُّ ولدٍ – أي أنَّها جاريةٌ – وكان اسمُها مكنونةً، وهي من جواري المروانية المغنية ولذلك غلبَ عليها حُبُّها للغناءِ ولمجالسِ اللَّهوِ (الأصفهاني، الأغاني، ٢٢/٤، ٢٠١١).

شعريّتُها:وكانت – مع ما تميلُ إليهِ من حبِّها للغناءِ، والتَّجديدِ في الشِّعرِ – تقولُ الشعر الجيد، وتصوغ فيه الألحان الحسنة (الأصفهاني، الأغاني، ٢٢/٤، ٢٠١١).

مولدُها ووفاتُها:وُلدت عليةُ بنتُ المهديّ سنةَ ١٦٠ هـ، وعاشت خمسين سنةً، ثمَّ تُوفيت بين يدَي ابنِ أخيها المأمونِ، نتيجةَ تقبيلِه لها في رأسِها ووجهُها مغطًّى، فشرقت، فحُمَّتِها، وكانَ ذلك سنةَ ٢١٠ هـ (ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات،١٢٣/٣، ١٩٩٨).

أغراضُها الشّعريّةُ في ديوانِها:لم تتوسَّع عُليةُ في أغراضِها الشعريةِ، مع ما تمتَّعت بها من حسٍّ مرهفٍ وطبيعةٍ شاعرةٍ، ورقةٍ وعذوبةٍ منطقٍ (الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ٥٥، ١٩٧٩)؛ لأنَّها لم تتوفَّر لها الدوافع الكافيةُ لنظم الشعرِ على الأغراضِ الكثيرةِ التي اعتادَها شعراءُ العربِ (عكاوي، ديوان علية، ٣٤ – ٣٥، ٢٠٠٤)، ولذلك فقد انحصرَت أغراضُها في استعطافِ أخيها الرشيدِ وكانَ قد جفاها زمنًا، وفي مدحِه حينَ كانَ يصفُو لَها، وفي وصفِ بعضِ خدَمِها ممَّن تعلَّق قلبُها بهم، وكانَ اسمُه رشأ (الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ٥٦، ١٩٧٩).

مفهومُ (شِعريّةِ الزمانِ والمكانِ)ولارتباطِ كلٍّ من الزمان والمكان بالحالةِ النفسيةِ والتجربةِ الشعريةِ الوجدانيةِ ارتباطًا مباشرًا بدت تجليَّاتُ هذا الارتباطِ تظهرُ فيما يعتمد عليه الشاعرُ من إعطاءِ الوقتِ والحاجز المكانيّ أهميةً تفوق أهميتَه في الواقعِ؛ لأنَّه يُمثِّل عنوانًا على ما يُحسُّه وتزخرُ به نفسُه (حسين نجمي، شعرية الفضاء المتخيل، ٦٥، ٢٠٠٠)، ومن تلك الملامح الشعرية التي يُضفيها الشَّاعرُ على الاستعمالِ الجماليّ للزمانِ والمكانِ ما نقعُ عليهِ في التمايزِ بينَ طبيعةِ الوقتِ والمكانِ في الواقعِ وطبيعتِهما في المتخيَّل الشعريّ (نبهان حسون، شعرية تشكيل الخطاب، ١٥، ٢٠١٥).وانطلاقًا من تلك التأثيراتِ المتباينةِ التي يلعبُها التشكيلُ الزمنيُّ والمكانيُّ في الخطابِ الشعريّ، بوصفِهما عنصرينِ قويين في عكسِ مظاهرِ الخوفِ والقلقِ، أو السعادة والسرور من الحسِّ القابعِ في خطراتِ نفسِ الشاعرِ، على الملامحِ الظاهرةِ له، يُمكنُ فهمُ العلاقةِ بينَ التوظيفِ الشعريّ للزمانِ والمكانِ، والتوظيفِ الاعتياديّ، فالتوظيفُ الاعتياديُّ يعكسُ تصوّرَ الحقيقةِ الزمانية والمكانية كما أوضح ذلك باشلار بما أسماه بطرح الوظيفة عن الزمنِ الحقيقيّ (غاستون باشلار، جدلية الزمن، ٢١، ١٩٩٢)، أمَّا البُعد الحقيقي للزمن والمكانِ فلا يتصوَّرُ الشاعرُ وغيرُه من الناسِ أنَّ لهما جانبًا آخرَ سِوى الظاهرِ منهما، ويتَّضح الفرقُ في شعورِ الحزينِ بضيقِ المكانِ معَ اتساعِه، وطولِ الوقتِ حتَّى مع طبيعتِها أو قصرِه (نبهان حسون، شعرية تشكيل الخطاب، ١٦، ٢٠٠٥).

أولاً: شِعريّةُ الزّمانِ والمكانِ (البِنيةُ، والمُؤثّراتُ)هناكَ عددٌ من المؤثّراتِ الّتي تركت بصمتهَا على الأماكن والأزمنةِ الّتي وظّفتها عُليّةُ بنتُ المهديّ في الوصولِ إلَى غايتِها مِن توظيفاتِها لهما في مواقعَ هي الأنسبُ بِحلولِهما فيهَا، فَأدّت إلَى إضَفاءِ الحسيّةِ عَليهما، بِما صوّرتهما لمُتلقّيها وَجسّدتهما له، فراحَ يراهما شَخصَين يُشاركانِها في التّعبيرِ ويُنتجانِ معَها دلالةً جماليةً ومعنويةً تَضعُ المُتلقّي أمَام حالةٍ نفسيةٍ ووجدانيةٍ يَكونُ الزّمانُ أو المكانُ فيهَا أحدَ أبطالِها.وتُطلُّ عَلينَا تلكَ التّأثيراتُ برأسِها فِي كَثيرٍ مِن منظوماتِ عُليّةَ بنتِ المهديّ، عَبرَ مُستوياتِ السّردِ الشعريّ، الّتي عَبَّرت عَمّا تضمَّنته مِن مدلولاتٍ خطابيّةٍ بِطريقِ الانحرافِ البلاغيّ، ومِن ذلِكَ قولُ عُليةَ (رحاب عكاوي، ديوان علية، ٤٠، ٢٠٠٤)[الخفيف]:

أيُّ ذنبٍ أذنبتُه أيُّ ذنبِ ** أيُّ ذنبٍ لولا مخافةُ ربّي

بِمُقامي بِطيزناباذَ يومًا ** بعدَه ليلة على غيرِ شربِ

ففي تساؤلِها عما عساها تكون اقترفته من الذنوبِ المؤديةِ إلى تلك القطيعة بينَها وبين أخيها من أبيها هارون الرشيد، تنطلقُ من الدلالةِ الانزياحيةِ التي يحملها أسلوبُ الاستفهامُ في طيَّاتِه، لتُعزّز به من نفي هذا الذنبِ عنها، فتساؤلُها إنما هو استبعادٌ لأن تكونَ قد أذنبت، وذلك في ذاتِه إنكارٌ ضمنيٌّ منها لِما عدَّه الرشيد ذنبًا أجرى عليها العقوبة بِبُعده عنها بسببِه حينَ أقامت بِـ(طيزناباذ) أيَّامًا قليلة في عودتِها من من موسم الحجّ.وكما هو ملاحظٌ ذلك التشكيلُ المكانيُّ ذو التأثيرِ البالغِ في نفسِ عليةَ، والذي يُجلّي لنا عنه تصريحُها فيه باسمِ مكانِ إقامتِها في عودتِها من الحجّ، فذكرُها لـ(طيزناباذ) كان يُغني عنه علمُ الرشيد به، ولكنَّها أرادت عكسَ ذلك الأثر النفسيَّ الذي أحسَّته تجاهَ هذا المكانِ بعد غضبِ الرشيد عليها، فأعادت ذكرَ اسمَه، أو أنَّها أرادت تذكيرَ الرشيد بأنَّه من الأماكن المعلومةِ لديه؛ فما من داعٍ لثورتِه وغضبِه عليها، وكلُّ ذلك من تأثيرِ البناءِ اللفظيّ الذي يعكسُ لنا الأثر النفسيَّ.كما تتبلور ملامحُ التأثيرِ النفسيّ والوجدانيّ للمكانِ، في قولِ عُليَّة أيضًا (رحاب عكاوي، ديوان علية، ٦١، ٢٠٠٤)[السريع]:

صَبرتُ حتَّى ظَفِرَ السُّقمُ بي ** كمْ تَصبرُ الحلفَاءُ للنَّارِ

لَولَا رجائِي العطفَ مِن سَيِّدٍ ** بقيتُ بينَ البابِ والدَّارِ!

فَهذان البيتانِ تَعبيرٌ صَادقٌ عَمّا ألحَّ عَلَى نفسِ عليةَ مِن محبّةٍ لَم تَقدِرِ عَلى سَلّها مِن رُوحِها، فحَثَّت نَفسهَا عَلَى الصَبرِ المُمضّ رَاغمةً مقهورةً لَا تملكُ معَ ذلكَ البُعدَ؛ كَما تَصبرُ نَبتةُ الحلفاءِ عَلَى النّارِ، ولا يَخفَى مَا في تَلك المُحاكاةِ مِن الاستعارةِ، لمَا فيهَا مِن تَشبيهِ صَبرِها عَلَى أذى حبيبِها الذي تَركَهَا، بِأذى النّارِ الّتي تُلتهم الحلفاءَ سريعًا دونَ توقُّفٍ، ومعَ ذلِكَ، لَا تستطيعُ الحلفاءُ تخليص نفسِها مِن تَلك النّارِوقُولُها في البيتِ التّالي: "لولا رَجائي..." بيان وتعليلٌ لِهذا الصَبرِ، فِهي وإن لم تَكن قادرةً عَلَى التّركِ والابتعادِ، فَهي كذلك تُحاولُ أن تجد لنفسِها مَا يُحملُها على الصبرِ ويُرضيهَا بِه، فتُخبرُ بِأنّ سببَ صَبرِها عَلى ذلِكَ الذي عَدّته سيّدها، أنّها على رجاءٍ في رجوعِه، وإن لّم يَكن هذا شأنُها معَه، فما كانت لتبرحَ؛ لأنّ لزومها المكانَ الذي يُحقّق لها الغايةَ من صبرِها وهو أن تكونَ بينَ البابِ والدّارِ، هو أملُها في ذلك، فَجاءَ تعبيرُها بالبَينيّةِ مِن قولِها: "بينَ البَابِ والدّارِ" مُفصحًا عَن علاقةِ المكانِ بالحالةِ الوجدانيّةِ التّي انتابتِ عُليّةَ (أنس عبد الواحد، جمالية المكان في الشّعر المعاصر، ٩١، ٢٠١٩)، والّتي أثبتتها وعزّزت مِن وجودِها تلكَ التّحوُّلاتُ النفسيّةُ في الاستعمالِ اللغويّ لظرفِ المكانِ (بَينَ) في هذا الموقعِ، حيثُ تدلُّ عَلى ارتباطِ المكانِ الحقيقيّ الذي يَجبُ عليهَا لزومَه حتّى يتحقق مقصدُها، بالمكانِ الافتراضيّ النفسي الذي احتلّه المحبوبُ مِن نفسِها (غاستون باشلار، جدلية الزمن، ٧٤، ١٩٩٢).ومن انعكاساتِ تأثيرِ الزمنِ على نفسِ عليةَ، عن طريقِ محاكاتِها لِما تشعرُ به من لذةِ ريحِ الخمرِ، بما تُحسُّه من جمالِ أجواءِ الطبيعةِ الساحرةِ التي تُفرزُ تأثيرَها في نفسِها كلَّ وقتٍ، ما جاءَ في قولها في وصفِ الخمر(رحاب عكاوي، ديوان علية، ٤٢)[السريع]:

كأنَّها مِن طيبِها في يَدي ** تُشَمُّ في المحضرِ أو في المغيبِ!

ريْحانةٌ طِينَتُهَا عَنبرٌ ** تُسقَى مَعَ الرَّاحِ بِماءٍ مَشوبِ

فاتصافُ الخمرِ بِأنّها "رَيحانةُ طينتُها عنبرٌ" فِي البيتِ الثّاني، مُنطلَقُ عُليّةَ نحوَ التّعبيرِ عَن أسبابِ بقاءِ ريحِها في أنفِها، وشعورِها باللذةِ المُتناهيةِ لِتنشُّقِها إيّاها حالَ حضورِها وحالَ غيابِها، حتّى اختلافِ الزمنِ وتباينِ الأوقاتِ، ذلكَ أنَّ الخمرَ لو لم تكن ذات رائحةٍ نفّاذة مُعجِبةٍ مَا كانَت لتبقَى ذكرَى رائحتها في أنفِ عُليّةَ.ولرغبةِ عُليّةَ في إظهارِ مَدَى ما بلغَه استمتاعُها بِريحِ الخمرِ عَلى أيّ حالٍ كَانتِ، وفِي أيّ وقتٍ، عَمدَت لتوظيفِ اسمَي الزّمانِ (المَحضرِ – المَغيب)، مِن قولهَا: "تُشَمُّ فِي المَحضرِ والمَغيبِ"؛ لِتؤكّدَ على أنّ تَأثيرَها مُمتدٌّ لَا يَغيب عنها حتّى لو غابت هي عَن مجسها، وذلكَ أبلغُ في الدّلالةِ عَلَى أنّ مَا تشعرُ يَتخطَى حدودَ وجودِ الخمرِ في زمنٍ دونَ زمنٍ، ومِن ثَمَّ يُعزّزُ مِن القولِ بتأثُّرِ عُليّةَ بِها، مِمّا حَملَها عَلَى الاتّكاءِ عَلَى الزّمانِ في إبرازِ تلكَ التّجليّات. ومن أجرتْه من شِعرِها على لسانِ أحدِهم؛ بغرضِ بيانِ قدرِها في نفسِ محبّيها، وكيفَ أنَّهم بِقدرِ مَا شُغِفَت ببعضِها، فإنَّ بعضَهم قد شُغِفَ بها، ما قالتْه في إظهارِ مدَى ما بلغَه الحبُّ من نفسِ ميمون بن هارون فيها، من قولِها (رحاب عكاوي، ديوان علية، ٧٦، ٢٠٠٤)[البسيط]:

مَا زلتُ مُنذُ دَخلتُ القَصرَ فِي كَربٍ ** أهذي بِذكرِكِ صَبًّا لَستُ أنْسَاكِ

لَا تَحسَبِينِي وإنْ حُجّابُ قَصرِكمُ ** سدُّوا الحِجابَ وحَالُوا دُونَ رُؤياكِ

وليسَ يخفَى ما في هذين البيتين من إجراءِ ضمائرِ الخطابِ فيهما على المذكَّرِ، وفي ذلك أنَّ عُليَّة قد أجرت تلك الأبيات على لسان ميمون بن هارون، الذي دخل القصرَ طالبًا رؤيتَها والقربَ منها (الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ٦٨، ١٩٧٩)، ولعلّها فَعلت ذلَكَ رغبةً في إثباتِ محبّةِ ميمون بن هارونَ فيهَا، وحرصِه عَلى القُربِ منهَا، حتّى دعاهُ ذلكَ إلَى دخولِ قَصرِ الرشيدِ غيرَ مُكترثٍ بِمَا قدَ يقعُ لهُ، لا يَأبه لشيءٍ سِوَى أن يَلقاهَا.

ويُوظّفُ الزّمن المُستفاد مِن الظرفِ (مُنذُ) لِتحديدِ علاقةِ الزمنِ بمَا أصابَه مِن الكربِ؛ بِسببِ مُحاولةِ لقائِه عُليّةَ فيهِ مَعَ ما يعلمُه مِن أنّ دخولَه وانكشافَ أمرِه مِمّا يُسبّبُ لهُ المتعابَ معَ الرّشيدِ الذي يَتحفّظُ مِن أن تَطلّع أُختُه عَلى أغرابٍ، ففي قَولِ عُليّةَ: " مَا زِلتُ مُنذُ..." تَأكيدُ عَلَى طولِ مُدّةِ معاناتِه ومُعالجتِه لهذا الكربِ، فَ(ما) الّتي تَدخلُ عَلَ الفعلِ النَاقصِ (زال) ظرفيةٌ بِمعنَى الوقتِ أو المُدّةِ أو الحينَ (ابن هشام، مغني اللبيب، ٤١٦/١، ٢٠٠٣)، وغالبًا مَا تُفيدُ طولَ المُدّةِ، وبِإفادةِ (ما) معَ (مُنذ) ذلكَ الذي أشرنَا إليهِ، نستنتجُ رغبةَ عُليّةَ في الدّلالةِ عَلَى الأثرِ النّفسيّ الناجمِ عَن شَعورِ المُحبّ بطولِ الزمنِ واضطرابِ المشاعرِ.ومن شعرِها الذي تسعَى لاستفزازِ صاحباتِها فيهِ للاصطباحِ بالخمرِ، واللهوِ في مكانٍ ما مُشَارٍ إليهِ في النصّ؛ للاستمتاعِ والالتذاذِ بهذا اليومِ، قولُها (رحاب عكاوي، ديوان علية، ٥٥، ٢٠٠٤)[الوافر]:

تَعَالَوا ثَمَّ نَصطبِحُ ** ونَلهُوا ثُمَّ نقترحُ

ونجمَحُ في لَذاذَتِنا ** فإنَّ القومَ قد جمحُوا

فَانطلاقُ عُليّةَ فِي هذين البَيتَينِ مِن الجَمعِ بينَ الزّمانِ والمكانِ مِن قَولِهَا "ثَمَّ نَصطبِحُ، إشعارٌ بِأنَّ لهما قيمةً دلاليةً تُحقّقُ لهَا المرادَ مِن خطابِها الشّعريّ المُعتمدِ عَلَى المكانِ المُبهمِ الذي حَدَّثه بِـ(ثَمَّ) المفتوحةِ الثّاءِ، والزّمانِ الذي رَمزَت إليهِ بِالفعلِ (نَصطَبِحُ)، فالرمزُ بالزّمانِ هُنا يُعزز من رغبةِ عُليّةَ في قَضاءِ يَومٍ جَميلٍ مِن أوّلِه إلَى مُنتهاهُ بينَ اللعبِ واللهوِ والشّرابِ، ولعلّها جَاءَت بالظّرفِ المُبهمِ (ثَمَّ) تأكيدًا عَلَى أنَّ فكرةَ الانتشاءِ بالمكانِ ليست هي الأصلَ في الخِطابِ، فأيًّا ما كانَ المكانُ فستلتذُّ هي وصاحباتُها بِه؛ لِأنّه لا فرقَ عندَها بينَ مكانٍ ومكانٍ بعدَ تأثيرِ شرابِ الصبوحِ فيهَا، أوَ لأنّها لَا تخرجُ عن نطاقِ القصرِ، وثَمَّ أيُّ مكانٍ فيهِ مهما كانَ، فهو أجملُ مِمّا لو خرجَت خارجَه.ويأتِي الجِناسُ غير التام بينَ (ثَمَّ نَصطَبِحُ.. ثُمَّ نَقترِحُ) بِوصفِها مظهرًا مِن مظاهرِ الجمالِ التي تَكسُو صورةَ اللفظِ، فَتزيدُه بهاءً وتُحفّزُ مِن فاعليةِ استقبالِ المُتلقّي لهُ، فَالجِناسُ مِن عَناصرِ الإثارةِ التي تزيدُ توهُّجَ المعنَى (جميلة سريح، جماليات البديع في شعر ابن سهل، ٤٥، ٢٠١٩)، وتحملُ المُتلقّي عَلى التّماهي معَه؛ بِسبَبِ وجودِ الدّافعيّةِ، فـ"الجِناسُ لا يُعتبرُ حليةً تَكميليّةً لَا مردودَ لهُا في الكلامِ، عَلى كلِّ حالٍ، بل إذا أحسنَ الشّاعرُ تَوظيفَها جاءَ مِن خلالِها بِالمعنَى الغريبِ" (محمود عبد المعطي، موسيقى الشعر، ٣١٩، ٢٠١٣)، وغرابةُ الاستعمالِ هُنا دليلُ إغراقٍ مِن الشّاعرةِ عَلَى فَهمِ وجوهِ الجمالِ في أضربِ البديعِ المُختلفةِ.

ثانيًا: الرّوافدُ الأسلوبيّةُ لِشعريةِ الزمانِ والمكانِ في ديوانِ عُليّةَ:

هناك عدد من المرتكزاتِ الأُسلوبيةِ التي ينطلقُ منهَا الشّاعرُ في بناءِ دلالةِ الخطابِ، وإعادةِ إنتاجِ معناهُ عَلَى الوجهِ الذي يَتّفقُ معَ مقاصدهِ منهُ، مِن أهمّها المُستوياتُ الأُسلوبيّةُ المُتعلّقةُ بِالاستعمال النحّويِ والبلاغيِّ الذي يتحكَّمُ في المعنَى الدلاليِّ الذي يُعبّرُ عَن الزّمان والمكان، بِحسَبِ الموقعِ الإعرابيِّ الذي يَحتلُّه، وتَبعًا لِطبيعةِ الانزياحِ البَلاغيِّ الذي يُضفِي النَزعةَ الجماليّةَ، والقيمةَ الدّلاليةِ الّتي لولا هذا الموقعِ وذلك النّوع مِن الانزياح ما كانَ لِيُفرزَ ذلَك الأثرَ الدّلاليَّ.وقَد وظّفَت الشَاعرةُ العبّاسيةُ (عُليّةُ بنتُ المُهديِّ) عدد من تلكَ المُرتكزاتِ الّتي انطلقَت مِنها لِبُلوغِ الغايةِ المُنشودةِ مِن خطابِها، بِمَا يُظهرُ لَنَا جَماليّةَ التوّظيفِ الزّمكانيِّ فِي خِطابِها مِن ناحيةٍ، ويُؤكّدُ عَلَى أنَّ لثنائيّةِ الزّمانِ والمكانِ مِن التّأثيرِ فِي صِناعةِ المعنَى وشِعريّةِ الخِطابِ مَا ليسَ لغيرِهما مِن مُكوّناتِ القالبِ الفنيّ، وتُجلّي لَنَا بعضُ خِطاباتِها الشّعريةِ في دَيوانِها عَن ذلِكَ بِصُورةٍ واضحةٍ، ومِن ذلك، قولُها وهي تُكنّي عن حبيبِها الذي تخافُ التصريحَ باسمِه؛ خشيةَ انكشافِ أمرِهِ وإلحاقِ الرَّشيد به العقابَ (رحاب عكاوي، ديوان علية، ٤١، ٢٠٠٤)[السريع]:

القلبُ مُشتاقٌ إلَى رَبِبِ ** يَا ربِّ مَا هَذا من العَبِبِ
قَد تيَّمتَ قَلبي، فلَم أستطِع ** إلَّا البُكا يَا عالِمَ الغيبِ
خَبَّأت في شِعرِي ذِكرَ الَّذي ** أردتُهُ كالحَبِّ فِي الجَيبِ

فإنّ فِي هذه الأبياتِ عَددًا مِن الصّورِ البيانيّةِ الاستعاريّةِ الّتي اتّخذت مِنهَا الشّاعرةُ عُليّةُ بنتُ المهديّ سبيلًا لِمُعالجةِ تلكَ النزعةِ العَاطفيّةِ الّتي تُضمرُها لِحبيبٍ تَخافُ أن تُصرّحَ بِذكرِ اسمِه؛ لخشيتِها مِن أنّ لّا تراهُ مرّةً أُخرَى، فَكَّنت عَنهُ أوّلًا بِاسمٍ سِوى اسمِه، فَقدَ أطلقَت عَليهِ اسمَ (رَبِب) مِن قولِهَا: "القَلْبُ مُشتَاقٌ إلَى رَبِبٍ"، وهي هنا إنَّما تُحاولُ التصريحَ بنا لو ظلَّ طيَّ خاطرِها لقتلَها (السيوط، جلال الدين، نزهة الجلساء، ٧٣، ١٩٨٦)، وتلك التّكنيَةُ إحدَى الوسائل الإبداعيّةِ الّتي التزمتْها عُليّةُ في كثيرٍ مِن شِعرِها للإبهامِ عَلى المُتلقّي.وبِمُعاودةِ النّظرِ فِي قَولِ عُليّةَ : "فِي شِعرِي ذكِرَ الّذي..." وربطِه بِالعُدولِ عَن ذكرِ حقيقةِ الحَبيبِ إلَى مَا يدلُّ عليهَا، نَستشرفُ طبيعةَ هذا الانقسامِ الذي جعلَهَا تُخبّئُ ذكرَه فِي نَفسِها، كَما تُخبّئُ الحَبَّ الصَّغيرَ فِي جَيبِهَا، والنّفسُ والجَيبُ هُنا مكانَانِ لَا يُمكنُ لأحدٍ أن يطّلع عَلى مَا فيهما، ولا أن يَنكشفَ عَلى ما خبّأه صَاحبُهما؛ لخصوصيّتِهما، ولاشتراكِ هذين المَكانَينِ في صَفةٍ واحدةٍ، رَبطَت بينَهما – الشّاعرةُ – بِهذه الاستعارةِ الأنطولوجيّةِ الّتي تَستمدُّ قوّتَها البلاغيّةَ مِن شدّةِ حرصِ الإنسانِ عَلى إخفاءِ مَا ما يعزُّ عليهِ ظهورُه للنّاسِ، فعاملت الشّعر "معاملةَ ما لَه مُكوّنٌ فزيائيٌ يُمكّنُها من إخفاءِ ما لا تُحبُّ إبداءَه" (عبد المطلب عبد الحي، جمالية الاستعارة التصويرية بأنماطها الثلاثة، ٢٨٩، ٢٠٢٢)، فَالمسألَةُ إذن بِالنّسبةِ لِـ(عُليّةَ) "وجوديّةٌ تُحرّكُها نَحوَ محاولةِ التّأكيدِ عَلى أهميّتِها لَهَا قوَى الحُبِّ" (عبد الله أحمد الهواري، شَعريّة الزمكان، القيمة الجمالية والدلالية، ٩١، ٢٠٠١)، والعاطفةِ الّتي لَم تَجعل لهَا خيارًا سوَى التّصريحِ بِمَا لا يضرُّ الحبيبَ.ومِمّا صَدرت فيهِ عُليّةُ فِي إبرازِ شِعريّةِ الزمانِ عن لانزياحِ البلاغيِّ، قَولُها في أخيها هارون الرشيد(رحاب عكاوي، ديوان علية، ٨٤، ٢٠٠٤)[الكامل]:

تَفديكَ أُختُكَ، قد حييتُ بِنعمةٍ ** لَسنا نَعُدُّ لها الزَّمانَ عديلَا
إلَّا الخلودَ، وذاك قُربُك سَيّدي ** لَا زالَ قُربُك، والبقاءُ طويلَا

إذ تستشرفُ هُنا فِي هذا الخطابِ الاحتجاجَ عَلَى حبّها لِأخيهَا الرّشيدِ، وكانَ قَد دخلَ عليهَا يومًا فطلبَ منهَا أن تغنّيَه بِشيءٍ مِن شعرِها، فَأقسمت أن تَفعلَ، فقالتَ تلكَ الأبيات من توّها فيهِ (الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ٥٨، ١٩٧٩)، وإبداؤُها الفداءَ بِنفسِها لِأخيهَا مِمّا يَحتاجُ إلِىَ إثباتٍ، فَتذرّعت بتلكَ النّعمةِ الّتي عاشت فِيهَا زمنًا طويلًا امتدّت آثارُها في نفسِها كَما امتدَّ هو، وفِي إبهامِها لِلفظِ (الزّمانِ) دونَ تحديدٍ، طلَبٌ للإحالةِ عَلَى طولِه وديمومةِ الرّغدِ الذي عَاشت فيهِ مُنعّمةً مُدّةَ وجودِها في كنفِ الرّشيدِ، مِمّا يُرتِبُ عدمَ قُدرتِها عَلَى حَصرَ مَظاهرِ النّعمةِ أو عَدَّها أو عَدلِ شيءٍ بِهَا؛ لكثرتِها وغزارتِها.وفِي علاقةِ السّببيةِ الّتي رَبطَت فِيهَا عُليّةُ بينَ النّعمةِ وبينَ الحياةِ مِن قولِها: "قَد حَييتُ بِنعمَةٍ..."؛ إذ إنّ النّعمةُ سببٌ في استمرارِ الإنسانِ عَلى قيدِ الحَياةِ، لِمَا تُزوّدُه بِه مِن الطّاقةِ التي تُمكّنُه مِن البقاءِ، تَعزيزٌ مِن دَلالةِ استعمالِ الزّمنِ فِي إرادةِ الجمعِ بينَ النّعمةِ الّتي هِيَ أهمُّ أسبابِ البَقاءِ، والوقتِ الذي هو زمنُ البقاءِ، وفي إشارةِ عُليّةَ إلَى أنَّ النّعمةَ المُمتدةَ الّتي عَاشتْها في كَنفِ أخِيها الرّشيدِ، مِمّا لَا يُقارَنُ إلّا بِالخُلودِ، وهو زمنٌ مُستمرٌّ دائمٌ أبديٌّ لا يَنقطعُ، تَستثني (الخُلودَ) بقولِها: "لَسْنَا نَعُدُّ لَهَا الزّمانَ عَدِيلًا.. إلّا الخُلودَ" استثناءً مُنقطعًا؛ لأنّ الخلودَ ليسَ مِن جنسِ النّعمةِ، ونصبُه إذ ذاكَ واجبٌ (الغلاييني، جامع الدروس العربية، ٥٧٨/٢، ٢٠٠١)، وفِيه مِن وجوهِ البلاغةِ مَا يجعلُ مِن الخُلودِ مقابلًا لنعمةِ الرّشيدِ، وذلكَ ضربٌ مِن المبالغةِ في الوصفِ تجعلُ مِن غيرِ المُمكنِ مُمكنًا (ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، ٦١٨، ٢٠١١)، وهنا قَد قامَ الزمانُ المُستفادُ مِن توظيفِ الشّاعرةِ لِكلمةِ (الخلود)، مقامَ الحياةِ القصيرة التي عاشتْها عُليّةُ مَعَ أخيها وتُفصحُ في بعضِ شعرِها عن شِدةِ تعلُّقِ ميمون بن مهران بها، في الوقتِ الذي تنشغلُ هِيَ فيهِ بِغيرِه، منطلقةً في الإحالةِ عَلَى هذا المعنَى مِن جوهرِ الشّعريّةِ الّتي أكسَبَتْهَا للمكانِ والزّمانِ عَبرَ الوظائفِ التّركيبيّةِ التي سَلكَت بِهَا نحوَ إسباغِ الجماليّةِ عَلَى المكانِ والزّمانِ، إذ تقولُ (رحاب عكاوي، ديوان علية، ٧٦، ٢٠٠٤) [البسيط]:

لَا تَحسَبِيني وإن حُجَّابُ قَصرِكُمُ ** سَدُّوا الحِجابَ وحَالُوا دونَ رُؤياكِ
أنّي تَغيّرتُ عَمّا كُنتُ يَا سَكني ** أيّامَ كُنتُ إذَا مَا شِئتُ ألقاكِ
لكنَّ حُبَّكِ أبلاني وعَذَّبني ** وأنتِ في راحةٍ طُوبَاكِ طُوباكِ

فَإنّ فِي تصوُّرِ عُليّةَ عَن الحياةِ أنّها لُا تُعطيهَا مَا ترغبُ فِي نواله منهَا، بَل تَسيرُ معَها بِعكسِ اتّجاهِها، فالذي تُحبُّه وترغبُ في وصلِه لَا يأتِي، والذي لا تُفكّرُ فيهِ يُكلّفُ نفسَه عَناءَ البحثِ عنهَا، والاستمرارِ في اختلاسِ النّظرِ مِن بينَ كلّ تلكَ الحُجُبِ المُضروبةِ دونَ حصولِه عَلى مرادِه منهَا، وفِيمَا هو ساعٍ لذلك جادٌّ في مُحاولتِه لاختلاسِ نظرةٍ إليهَا من زحامِ الحرّاسِ، يُحيلُ عَلى أسبابِ فِعلِه وتضحيتِه بنفسِه في سبيلِ ذلكَ، فيقولُ: "أنّي تَغيّرتُ عَمّا كُنتُ يَا سَكنِي..."، لِتقعَ (أنّي) المفتوحةُ الهمزةُ مِن هذا الخِطابِ فِي محلّ نَصبِ مفعولِ (تَحسبِيني) الثّاني (الغلاييني، مصطفى، جتمع الدروس، ١١٩/١، ٢٠٠١)، والمعنَى: لَا تَحسبِيني تَغيَّرتُ عَليكِ، وأنتِ سَكنِي، لأنّ سَكنَ الإنسانِ موضعُ إقامتِه وحلولِه الذي مَا إن تغيَّرَ على كلّ النّاسِ، لَم يَتمكّن مِن التّغيُّرِ عَليهِ.فَجاءَ الإطارُ النّحويُّ الذي تَضمَّن جُملةَ المفعولِ بِه الثّاني (أنّي تَغيّرتُ) دالًّا عَلى نَفي التغيُّرِ عَمَّن يُعتقَدُ فيهِ ذلِكَ، فَهوُ بِالمنزلةِ الّتي لَا يقدرُ معَها إنسانٌ عَلى التغيُّرِ، بِمنزلةِ السّكنِ، على الاعتبارِ القائلِ بأنَّ "السكن هو ما يحدد القيمة الإنسانية للمكانِ الذي يُمكننا الإمساك به ... ويرتبط بقيمة الحماية التي يمتلكها المكان" (غاستون باشلار، جمالية المكان،٣١، ١٩٨٤)، والسكنُ أوقع الأماكن في نفسِ الإنسانِ مما لا يترك مجالًا للشكّ حولَ فكرةِ تغيُّرِه من ناحيتِه، فكان نفي ذلك عن مضمونِ جملةِ المفعولِ الثاني برهانًا على ارتباطِ المُتحدّث بالمَكانِ.وتظهرُ لَنَا جماليةُ الاستعمالِ الشّعريّ لِلزّمانِ كذلِكَ في قولِ عُليّةَ : "أيّامَ كُنتُ إذا مَا شِئتُ أَلْقَاكِ"، إذ يتضمّن ذلِكَ التّعبيرُ قُوّةً دلاليةً لَا تُؤدّى إلّا من خلالِ الزّمانِ المُبهمِ الذي استعملتْهُ فِي الإشارةِ إلَى أنَّ العقباتِ الّتي حالتَ دونَ رؤيةِ هذا المُحبِّ لَهَا، هي ما زادت مِن تمدُّد الأسَى في نَفسِه؛ لأنّه باتُ يُقارنُ بينَ ما كانَ فِي زمنِ لقائِه بِها، ومَا يكونُ الآنَ في زمنِ انقطاعِه عنهَا، وفِي إضَافةِ الظّرفِ الزّمانيّ (أيّامَ) إلَى الفِعلِ المَاضي (كُنتُ) إشارةٌ إلَى إبهامِ المُدّةِ الّتي كَانَ يلتقِي فيهَا حبيبتَه بدونِ قيودٍ، فاستعمالُ الزمانِ مضافًا إلى الفعلِ هنا مُشعرًا بطلبِ ارمزِ به إلى عمقِ الأثرِ النفسيّ (عائشة الأمين، جماليات الزمان والمكان في شعر ذي الرمة، ١٤٤،٢٠٢٢)، وذلِكَ ما يجعلُ النّدمَ أكبرَ والأسَى الذي يَحتلُّ نفسَه أعظمَ.ومما يتّصلُ فيه المكانُ والزمانُ اتصالًا مباشرًا بما تُحسُّه من حزنٍ وكربٍ، قولُها (رحاب عكاوي، ديوان علية، ٤٣، ٢٠٠٤)[الكامل]:

شَعفَ الفُؤادُ بجارةِ الجنبِ ** فَظَلِلتُ ذا حُزنٍ وذا كربِ
يا جارتِي أمسيتِ مالكةً ** رقّي وغالبَتي عَلى لُبّي

إنّ هذا التّنويعِ الذي تَعمدُ إليهِ عُليّةُ فِي استعمالِ ضَمائرِ الخطابِ والتكلُّمِ يُظهرُ لَنا قدرَ خوفِها مِن انكشافِ أمرِها وذيوعِ محبّتِها لِهذا الذي اعتادَت أن تُكنّي عنهُ بِـ(طَلّ، وزَينبَ، ورَيب) في مواضعَ كثيرةٍ من ديوانِها (الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ٥٩، ١٩٧٩)، وهِي هُنا تَجري عَلى عادتِها

في ذلكَ، فتُسايرُ ذلكَ الخوفَ، فَتعمدُ إلَى أسلوبٍ مُبهمٍ "يرمزُ إلَى ما ترغبُ عَن التّصريحِ بِهِ، وتتحاشَى ذكرَه فتعمَدُ إلَى الرّمزِ والغموضِ المُشعرِ بِمدَى مَا تُحسُّه مِن خوفٍ، ويُظهرُ مَا يُفرَضُ عَليهَا مِن محاذيرَ" (حاتم عبد العزيز مكرم، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، ٦، ٢٠١٩).

ومِن ثَمَّ فإنَّ محاولةَ استجلاءِ هذا المعنَى من طريقِ الرمزِ والإغماض مُبرزةٌ لِأنّ شيئًا قاسيًا لا يلبثُ أن يستقرَّ في نَفسِها إلّا ويدفعُه الأسَى للخروجِ، فتعملُ على ذلك ولكن مِن طريقِ الرّمزوتَتخذ عُليّةُ الزمانَ والمكانَ منطلقًا لَها، وركيزةً تُحلّقُ مِن خلالِها فِي آفاقٍ جديدةٍ بَعيدًا عَن هذا الجوِّ المُخيفِ وتلَك الرقابةِ الصّارمةِ المُفروضةِ عَلى محبّتِها، وُتجّلي لَنا عَن ذلكَ الصّراعِ الذي تَعيشُه فِي قولِها: "شعَفَ الفُؤادُ بِجارةِ الجَنبِ"، بِتحديدِ مكانِ تلكَ الجارةِ التي شَعفَ فؤادُ الحبيبِ بِها، فهي جارةٌ لهُ، وفي جوارِها وقُربها منهُ معَ حرمانِه من لقائِها أو النّظرِ إليهَا ما يقوّي في نفسِه الشّعورَ بالفَقدِ والإحساسَ بالحزنِ والكربِ الذي يُتحدّثُ عَنهُ، ويُعزّزُ مِن شِعورِ الفَقدِ لدَيهِ أيضًا تلاقحُ الزمانِ معَ المكانِ في هذا النصّ؛ فَمِن خلالِ هذا التّلاحمِ المُنبثقِ عَن تسبُّبِ قُربِ جارتِه مِنهُ في المكانِ فِي شُعورِه الزّائدِ بالحُزنِ والكربِ؛ لِأنّهُ معَ قُربِها منهُ لا يَقدرُ عَلى مَا يقدرُ عَلى فعلِه البعيدُ عنهَا مِن اللقاءِ أو النّظرِ، يتثبّت أكثَرَ مِن أنّهُ سيظلُّ عَلى حالتِه هذه؛ لأنّ قربَ مكانِها هو مَا تسبّب لهُ فيمَا أوجزَ الحديثَ حوله بقولِه: "فَظَلِلتُ ذا حُزنٍ.." إذ إنّ الاستعمالَ الغويَّ والنّحويَّ للفعلِ (ظلَّ) لَا يَخرجُ عَن وقوعِ الفعلِ وقتًا غيرَ محدودٍ (الغلاييني، جامع الدروس العربية، ٦١٩/٢، ٢٠٠١).والأمرُ نفسُه مُستفادٌ أيضًا مِن استعمالِ عُليّةَ لِمَا يدلُّ عَلى امتداد الزمنِ فِي مُعانتِها، فتقولُ: "يَا جَارَتِي أَمسَيتِمَالِكَةً..."، لمَا يجعلُ مِن شعورِه بِالأسَى والحُزنِ والكَربِ مُمتدًّا فِيمَا بينَ وقتِ الظّلِّ ووقتِ الإمساءِ، ولعلَّه مِن الجمعِ بينَ النّقائضِ أو مِن قبيلِ المحاذاةِ الّتي تَمنحُ الخِطابَ قُوةً مُستمدّةً مِن التقابلاتِ النّحويةِ، فوضعُ المواقيتِ بعضِها في مقابلِ بعضٍ مُؤذنٌ بطبيعةِ الوقتِ الآنيةِ المُشعرةِ بالمَللِ والسآمةِ بِجانبِ الحُزنِ والكآبةِ.

ثالثًا: اختلافُ الظّاهرةِ لاختلافِ الزّمانِ والمَكانِ:

لا شكَّ أنَ لكلِّ زمانٍ وكلِّ مكانٍ طابعًا خاصًّا ينطوِي عَليهِ، وتأثيرًا دقيقًا فِي نفسِ الإنسانِ، فالأزمنةُ والأمكنةُ محرّكاتٌ لِعدد من المشاعرِ الّتي تنتابُ الإنسانَ مِن حينٍ لآخرَ، وإنّ التّأثيرَ النّاجمَ عَن وجودِ الإنسانِ في زمانٍ أو مكانٍ ما، لا يعكسُ بالضّرورةِ الأثرَ نفسَه عَليهِ في زمانٍ أو مكانٍ آخرينَ، وانطلاقًا مِن ذلِكَ نجدُ اختلافًا ظاهرًا في نوعِ الجماليّةِ والشّعريّةِ المُنبثقةِ عَن توظيفِ الزّمانِ والمكانِ لَدَى عُليّةَ بنتِ المَهديّ، نظرًا لاختلافِ الأزمنةِ والأمكنةِ، مِن حيثُ كانَ اتّفاقُ الأثرِ معَ اختلافِ الزّمكانيةِ أمرٌ غيرُ معقولٍ ولا مقبولٍ؛ لأنّهُ لا يُعبّرُ عَن صَدقِ التّجربةِ، ولَا عن طبيعةِ الحياةِ.ونتوقّفُ هنا مع بعضِ النّماذجِ الّتي أفرزت شِعريّةَ الزمانِ والكانِ عِندَ عُليّةَ، عَلى اختلافِ الحالةِ الّتي انتابتْها، وتباينِ التّجربةِ الّتي تُعبّرُ بِالزّمانِ أو المكانِ عَنهَا، ومِن تلكَ النماذجِ، قولُها (رحاب عكاوي، ديوان علية، ٤٨، ٢٠٠٤)[الكامل]:

اللهُ يحفظُهُ، ويَجمعُ بينَنا ** ربٌّ قريبٌ للدُّعاءِ مُجيبُ

يَا طيبَ عَيشٍ كُنتُ فيهِ وسَيّدي ** نُسقَى بِكأسٍ، والجنابُ خصيبُ

ذلك حيثُ يتموقعُ شعورُ عُليَّة بِخصوبةِ المكانِ الذي تتحدثُ عنه، حولَ فكرةٍ وجوديةٍ صحبت الإنسانَ من بدايةِ الخليقةِ، وهي الإحساس بالراحةِ والدعة والسكينةِ في وجودِ الحبيبِ الذي يُمثِّل وجودُه وجودًا لكلِّ شيءٍ وفقدُه فقدًا لكلِّ شيءٍ، وارتكازًا على ذلك المفهومِ بدَا بوحُها حزينًا، فاستعمالُ صيغةِ الماضي مشعرٌ بأنَّ ما تصرح به انقطعَ ولم يعُد له أثرٌ في حياتِها؛ ما أنتجَ إحساسَها بنقيضِه.وفِي تَعزيزِ مذهبِها نحوَ تَأكيدِ تلكَ الحقيقةِ الوجوديّةِ، تَجمعُ بينَ لذّةِ الشّرابِ في مجلسٍ يجمعُها به، ورغدِ العَيشِ حينَ كانت إلَى جوارِه، مؤكّدةً بِجمعِها بِينَ لذّةِ الشّرابِ، ومُتعةِ مُجاورتِه عَلَى أنَّ لزومَ ذلكَ مرتبطٌ بِلزومِ المكانِ الذي هو فيهِ، ولِذلكَ دَعتِ اللهَ تعالَى بِأنّ يُعيدَهما مُجتمعِيَن بعدَ تفرُّقِهما بِقولِها: "أللهُ يَحفظُهُ ويَجمَعُ بَيْنَنا"، ومِن لوازمِ حصولِ لذّةِ الاجتماعِ، ذلك المكانُ الذي يجتمعانِ فيهِ.وتُشيرُ بالزمنِ إلى الحالةِ المصاحبةِ له قبل أن يتمكَّن منها الحبُّ، فيأتي الظرفُ (قبل) مضافًا إضافةً محضةً إلى ضميرِ لمخاطب (ك)، دالًّا على أنَّ غيابَ الحالةِ مرتبطٌ بغيابِه هو، فتقولُ (رحاب عكاوي، ديوان علية، ٨٣، ٢٠٠٤)[الكامل]:

يا عَاذلي قد كُنت قبلَك عاذلًا ** حتَّى ابتُليتُ فَصِرتُ صبًّا ذاهلًا

الحُبُّ أوَّلُ ما يكونُ مَجانةً ** فَإذَا تحكَّمَ صَار شُغلًا شَاغلًا

يستجلي لنا ذلك النصُّ حالةَ الشّاعرةِ الّتي بَرزَت للنّاسِ عَليهَا، فَلا تملكُ معَ ما تُحسُّ بِه مِن شدّةِ وقعَ عذلِ العاذلِ عليهَا ولومِه عَلى حُبِّها أن تَلومَه هي الأُخرَى؛ لأنّها قَد سَبقَته إلَى ذلِكَ، فَما كانت لتوجّه له اللومَ الآنَ وهي تعلمُ أنّه يردُّ عليها ما فعلته بهِ من ذي قبلِ، فبعدَ التجربةِ ومرارةِ الشّعورِ بوقعِ هذهِ العاطفةِ انتفَت عندَها رغبةُ اللومِ عَلى العاذلِ، وانضمَّ إلَى ذلِكَ إحساسُها بِسوءِ فعلِها زمنَ الفراغِ وعدمِ الشّعورِ بالحبِّ.وفِي نِداءِ العَاذلِ عَلى تلكَ الصّورةِ مَا يُشعرُ بِإشفاقِ (عُليّةَ) عَليهِ مِمّا كَانت تُعرّضُه لهُ مِن ذلِكَ فِي زمنٍ سَابقٍ، ومِمّا سيكونُ عَليهِ في الزّمنِ الرّاهنِ أو

المُستقبلِ مِن مُعالجةِ الحُبِّ، وتُبدي بِخطابِها لهُ حجمَ هذا الإشفاقِ مِن خلالِ ذلِكَ التحوّلِ الذي نَلمح تأثيرَه في انتقالِ الزّمنِ بِها مِن حالةِ اللومِ والعذلِ الذي كانت تأتيهِ معَ المُحبّينَ، إلَى حالةِ الشّكوَى مِن العاذِلينَ الذين يفعلون بِها ما كانت تفعلُه بغيرِها، وتؤكّد عَلى تلكَ الحقيقةِ؛ ليتركَ العاذلُ عذله، بالاحتجاجِ عَليهِ بِما ينهاهُ عن فعلِه هذا، فتقولُ: "الحُبُ أوّلُ ما يَكونُ مَجانةً..."، فـ"الأدلّةُ الإقناعيةُ أجدَى ما يستندُ إليهِ الخصمُ في إقامةِ حُجّتِه عَلى ما يطلبُه مِن تركِ أو فعلِ ما يُرغّبُ فيهِ أو ينهَى عنهُ" (عبد الهادي قاعود، حجاجيةُ الصورة الشّعرية، ١٩١، ٢٠١٦)، والمجالُ هنا مجالُ تأكيدٍ عَلَى ضَرورة تركِ ما كانت تفعلُ؛ لكي لا يقعَ لهُ ما وقعَ لها زمنَ فعلِه، ومِن ثمَّ بدَت انعكاساتُ الزّمنِ واضحةً عَلى سلوكِ عُليّةَ ومَا تُسديهِ للعاذلِ مِن نُصحٍ.ومما صاغت فيه تصوراتِها حولَ ما يفعلُه الليلُ بأهلِه، قولُها (رحاب عكاوي، ديوان علية،٨١، ٢٠٠٤)[السريع]:

مَن علَّلَ اللَّيلَ بِأقدَاحِه ** قَوِيَ علَى اللَّيلِ وتَطويلِهِ

مَا كانَ يَفنَى اللَّيلُ مِن طُولِه ** لَا يَعرِضُ الليلُ لِمشمولِه

ذلكَ أظهرُ خِطاباتِها الشّعريّةِ الّتي تُفرزُ أثرَ الحالةِ النّفسيّةِ والوجدانيّةِ، ومَا يعكسانِه عَلَى السّلوكِ البشريّ المُستشعرِ لطولِ الزّمنِ نتيجةَ مَا أصابَه مِن الحُزنِ والكآبةِ والمَللِ، لاسيّمَا وقتَ اللّيلِ؛ لأنّه أشدُّ الأوقاتِ وطأةً عَلَى نفسِ الحزينِ، وأمضّها عَلى قَلبِ المُحبِّ المُلتاعِ، فَليسَ يَشعرُ بِطولِ الليلِ إلّا أحدُ هذين، ولِعُمقِ تَجربةِ عُليّةَ مَعَ طولِ الزّمنِ الذي يَمرُّ عَليهَا وقتَ الليلِ، تُسدِي لمَن هذا شأنُه مِن المُحبّينَ النُصحَ، فَتُخبرُه بكيفيةِ التعلُّلِ فِي هذا الوقتِ وطريقةِ تمريرِه دونَ الشّعورِ بطولِه.ومُعالجةُ عُليّةَ لهذه النّصيحةِ بِالجُملةِ الشّرطيّةِ "مَن عَلَّلَ... قَوِيَ" استهدافٌ لتحقيقِ الغايةِ مِن هذا الشّرطِ، وهو تعليقُ حصولِ جوابِه عَلَى حصولِ فعلِه، فَمتَى سَعَى الحَزينُ أو المُحبُّ إلَى تعليلِ لَيلِه بِالشّرابِ، انتفَى عِندَه الشّعورُ بِمرورِه، فكانَ ذلِكَ أهونَ عليهِ مِن لو لَم يستجِب لنصحِها، وتُرجعُ السّببَ في ذلِكَ إلَى أنّ الليلَ زمنٌ مُمتدٌّ لا يَفنَى ولا يزولُ وإنّ زالَ فإنّ أثرَه باقٍ معَ المحزونِ والمُحبّ، وتُرتّبُ عَلَى ذلك الأثرِ ضرورةَ التّعاطي معَ الأقداحِ لخسارةِ الوقتِ وعدمِ الشّعورِ بمرورِه بطيئًا.

خاتمة:

وبَعدَ بلوغِ تَمامِ هذه الدّراسةِ يُمكنُ الوقوفُ عَلَى أبرزِ مَا بلغتْه مِن نتائجَ، وتوصلت إلَيهِ مِن توصيات، وهِي عَلَى ذلكَ النّحوِ:

- عَدمُ اقتصارِ الاستعمالِ العُرفيّ للزمانِ والمكانِ عَلَى مجردِ الدّلالةِ بهما عَلَى مواقيتَ أو مواضعَ في حياةِ الإنسانِ.
- أنّ انتماءَ الإنساءِ إلَى زمنٍ ما أو مكانٍ مَا، مِن أبرزِ أسبابِ استعادتِه في ذاكرتِه أو حديثِه.
- شدّةُ ارتباطِ الزّمانِ والمكانِ في شِعرِ عُليّةَ بنتِ المُهديّ بِضَروبٍ مختلفةٍ مِن الدّلالاتِ والمَقاصدِ النّصيّةِ.
- أكثرُ استعمالاتِ عُليّةَ للقيمةِ الزّمانيّةِ في شِعرِها مردُّها إلَى الزمنِ المبهمِ، مِما يعكسُ طبيعةَ شعورِها المُسيطرِ عليهَا تجاهَ الزمنِ.
- انسجامُ الوظائفِ الشّعريّةِ للزمان والمكانِ في شِعرِ عُليّةِ مَعَ الأغراضِ المُستعملَةِ فيهَا.
- أنَّ ارتباطَ شعرية الزمان والمكان في خطابِ عُليّةَ بنتِ المهديّ باللغةِ، لَا يَعنِي انحصارَه فيها، بَل تخطَّت ذلكَ إلَى الانزياحاتِ اللغويةِ، والانحرافاتِ البلاغيّةِ، والتّأثيراتِ النّفسيةِ الّتي تبدو بصورةٍ واضحةٍ في ارتباطِ الخطابِ بالحالةِ الوجدانية.

قائمة المراجع والمصادر

ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات والذيل عليه، محمد بن شاكر الكتبي، تح: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٩٨

أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم من كتاب الأوراق، ٥٥، طبع بعناية المستشرق : ج. هيورث، دار المسيرة، بيروت، لبنا، ط٢، ١٩٧٩

أبو عبد الله جمال الدين ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح: حسن حمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣

الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ٢١/٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط، ٢٠١١

أنس عبد الواحد سمرة، جمالية المكان في الشعر المعاصر، دار مكتبة الآداب للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠١٩

تَحرير التّحبير في صَناعةِ الشّعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، تح: د. حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠١١

جميلة سريح، جماليات البديع في شعر ابن سهل الأندلسي، أطروحة مقدمة لنيل درجة الماجستير، في الأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح، الجزائر، ٢٠١٩

حاتم عبد العزيز مكرم، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار توبقال، االدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠١٩)

حسين نجمي، شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية، المركز الثقافي، ط١، ٢٠٠٠

رحاب عكاوي، ديوان علية بنت المهدي، ٧، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤
الشيخ مصطفى الغلاييني، جامع الدّروس العربية، دار الغد، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠١
عائشة الأمين محمد، جماليات الزمان والمكان في شعر ذي الرمة، مجلة القرطاس، مجلة علمية محكمة،عد: ١٧، ٢٠٢٢
عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، نزهة الجلساء في أشعار النساء، تح: تحقيق وتعليق: د. عبد اللطيف عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٨٦
عبد المطلب عبد الحبي، جمالية الاستعارة التصويريةبأنماطِها الثلاثة (الأنطولوجية/ البنيوية/ الاتجاهية) من خلال كتاب نهج البلاغة، مجلة اللسانيات التطبيقية، مخبر الدراسات المصطلحية والمعجمية، الجزائر، مج: ٠٦، عد: ٠٣، ٢٠٢٢
عبد الهادي أحمد قاعود، حجاجية الصورة الشعرية (نماذج شعرية مختارة)، دار مجاز للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط١، ٢٠١٦
علية بنت المهدي حياتها وشعرها، د. كمال عبد الرازق العجيلي، ص١٣، الدر العربية للموسوعات، بيروت، لبنا،، ط١، ١٩٨٦
غاستون باشلار، جدلية الزمن، تر: خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٢
غاستون باشلار، جمالية المكان، تر: غالب هنسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٤
محمود عبد المعطي، موسيقا الشعر، منشورات النادي الثقافي الأدبي، المملكة العربية السعودية، ط١، ٢٠١٣
نبهان حسون السعدون، شعرية تشكيل الخطاب، مكتبة الملك فهد الوطنية، المملكة العربية السعودية، ٢٠١٥